Enlightenment collection's
ISSN 2716-7852
V:12, N°:2, (2022), P.P :162-182

سلسلة الأنوار
ISSN 2716-7852
المجلد:12، العدد:2، (2022)، ص.ص: 162- 182

البعد التاريخي والأثر الثقافي والعرقي والديني لطرق الحج في افريقيا

The historical dimension and the cultural, ethnic and religious impact of the pilgrimage routes in Africa

د.فتح الرحمن الطاهر عبد الرحمن حمد

جامعة البحر الاحمر (السودان)، fatah.conce@yahoo.com

تاريخ الاستلام : 2022/10/22 ؛ تاريخ القبول : 2022/11/02 ؛ تاريخ النشر :2022/11/10

الملخص

هدفت هذا البحث إلي التعريف بالبعد التاريخي لطرق الحج في افريقيا واثرها ثقافيا وعرقياً ودينياً علي المجتمعات الافريقية، حيث أحدث هذا الاثر لطرق الحج نشاطاً ثقافياً وحراكاً اجتماعياً بالنسبة لسكان إفريقيا مما استوجب بذلك دراسة هذا النشاط في بعده التاريخي وأثره الثقافي والعرقي والديني. تتبع الدراسة منهج البحث التاريخي الوصفي والتحليلي.

أهم النتائج التي خلص إليها البحث هي أن لطرق الحج في افريقيا الدور الأكبر في مسالة التحول الحضاري الاسلامي بإفريقيا ثقافياً وعرقياً ودينياً، اذ بدت واضحة في مظاهر التمدن الحضاري والثقافي والفكري والديني والعرقي عبر ارتباط الافارقة بالعالم العربي والإسلامي.

الكلمات المفتاحية: طرق الحج، الأثر الثقافي، الأثر العرقي، الأثر الديني، المراكز العلمية.

Abstract

This research aimed to introduce the historical dimension of the pilgrimage routes in Africa and their cultural، ethnic and religious impact on African societies، as this effect of pilgrimage routes created cultural activity and social mobility for the African population، which necessitated the study of this activity in its historical dimension and its cultural، ethnic and religious impact. The study follows the descriptive and analytical historical research method.

The most important findings of the research are that the pilgrimage routes in Africa have the greatest role in the issue of the Islamic civilizational transformation in Africa culturally، ethnically and religiously، as it seemed clear in the manifestations of civilizational، cultural، intellectual، religious and ethnic urbanization through the connection of Africans with the Arab and Islamic world.

Keywords: Hajj routes, cultural impact, ethnic impact, religious impact, scientific centers.

1-مقدمة:

ان دراسة طرق الحج في افريقيا لها اثرها الواضح في افريقيا خاصة في الجانب الثقافي والعرقي والديني، حيث كان لها دورها في انتشار الثقافة العربية والإسلامية، ودورها في تدفق الهجرات العربية إلي افريقيا اضافة إلي جهود العلماء الذين وفدوا عبر هذه الطرق ودورهم في التأثير الثقافي والعرقي والديني في افريقيا.

فقد أصبح خروج المسلمين من افريقيا جماعات أو فرادي إلي الحج واتصالهم بالشعوب الإسلامية المختلفة فى بلاد الحجاز أو أثناء رحلة الذهاب والعودة فإنهم يأتون ممتلئين بالحماسة لنشر هذا الدين فى بلادهم وما جاورهم من البلاد الوثنية، خاصة أن هؤلاء الحجاج كانوا يعودون محملين بالكتب الدينية التى تزيد من علم الأفارقة وثقافتهم، كما كانوا يعودون أحيانًا مصحوبين ببعض الدعاة والفقهاء والتجار من غير الأفارقة، وأنهم كانوا يقومون بإنشاء المدارس لتعليم اللغة العربية وتحفيظ القرآن الكريم مما كان له أثره فى نشر الإسلام والثقافة العربية والإسلامية.

2-أهداف البحث:

هدف هذ البحث إلي دراسة البعد التاريخي لطرق الحج في افريقيا واثرها ثقافياً وعرقياً ودينياً علي افريقيا. والتعريف بالدور البارز الذي لعبته طرق الحج في افريقيا اذ هيأت المناطق الإفريقية التى دخلها الاسلام أن تقبل بالحضارة العربية الإسلامية، حيث أحدث هذا الدين نشاطاً ثقافياً وحراكاً اجتماعياً بالنسبة لسكان إفريقيا مما استوجب بذلك دراسة هذا النشاط في بعده التاريخي وأثره الثقافي والعرقي والديني.

3-مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في ان الاسلام وانتشار الثقافة العربية والاسلامية لم يكن قد انتشرت بحد السيف كما يري اعداء الاسلام، كما ان الحج لم يكن مناسبة دينية فقط بل كان وسيلة اتصال بمنابع الحضارة والثقافة العربية والإسلامية، وكان الحجاج الذين تستغرق رحلتهم عبر طرق الحج عاماً أو

عامين أو اكثر يلتقون بإخوانهم المسلمين علي اختلاف بلادهم وألسنتهم وألوانهم فيشعرون جميعاً بالإخوة الإسلامية فتتحطم الحواجز العرقية والقبلية واللغوية والاجتماعية. ولذلك فان البحث يقتضي الاجابة علي السؤال الرئيسي وهو الي أي مدي كان لطرق الحج الأثر الكبير في التماذج العرقي والثقافي والديني في افريقيا؟ وتتفرع منه العديد من الاسئلة التي من بينها ماهي طرق الحج ومسالكها؟ والي اي مدي كان لطرق الحج الدور في انتشار المؤثرات الثقافية والدينية علي افريقيا؟ وكيف كان لجهود علماء المسلمين الدور في ظهور المراكز العلمية واثرها في انتقال الثقافة العربية والاسلامية؟.

4-منهج البحث:

تتبع الدراسة منهج البحث التاريخي الوصفي والتحليلي في جمع المعلومات من المصادر والمراجع ومن ثم تحليلها والوصول من خلالها إلي نتائج ضمنت نهاية البحث .

5-الإسلام وإفريقيا:

ظهرت الدعوة الإسلامية في بداية القرن السابع الميلادي بقلب الجزيرة العربية في فترة من التاريخ كانت البشرية فيها بأمس الحاجة إلى رسالة من السماء تنقذ المجتمعات من الانهيار وتصفي القلوب من شوائب الشرك، وتوجه العقول نحو عقيدة الوحدانية، وكانت الأقطار الأفريقية بعيدة كل البعد عن الحركة الدينية الجديدة، اللهم إلا ما كان من هجرة الصحابة الكرام رضوان الله عليهم إلى الحبشة بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال لهم: " لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه".

وقام بعض الصحابة رضوان الله عليهم بهجرتين إلى الحبشة في تلك الاثناء، وهما هجرتان لم تخلفا أثراً واضحاً فيما يخص نشر الدين الاسلامي على المجتمع الحبشي، لأن المهاجرين قد هاجروا فراراً بدينهم بعد أن اشتدت عليهم الضغوط من قبل قريش في الجزيرة العربية. وعلي الرغم من أن الهجرات الأولى للصحابة رضوان الله عليهم لم يتمكنوا خلالها من القيام بالدعوة إلى الإسلام في فجر البعثة بأفريقيا، إلا إن المسلمين الأوائل قد عرفوا العالم الأفريقي قبل انتشار الإسلام في

القارة الأفريقية، وهذا يعني أن الصلات بين العالمين العربي والأفريقي قديمة وسابقة لظهور الإسلام، وقد كانت جزيرة العرب قديماً على صلة اقتصادية ودينية وسياسية بشرقيّ أفريقيا، ولم يكن الحضور الأفريقي مقتصرًا على العبيد الذين يجلبون من القارة السوداء، بل كانت للحبشة ارتباطات وثيقة باليمن جنوبي الجزيرة العربية (رياض؛ زاهر، 1997م، ص333).

6-اتخذ الاسلام خلال تقدمه إلي افريقيا مسلكين:

أولهما طريق البحر الاحمر: وهو طريق باب المندب المحاذي لساحل شرقي أفريقيا، حين كان المسلمون يعبرون البحر الأحمر للتوجه نحو الصومال والحبشة وزنجبار، وكان الاتصال بين هذه المناطق الأفريقية وشبه الجزيرة العربية مباشرةً ، وتبعًا لذلك كان شرقي أفريقيا متأثرًا في شؤون دينه بمناطق الجزيرة العربية، ويتجلى ذلك في انتشار المذاهب الفقهية والطرق الصوفية التي كانت تنتشر بين سكان الجزيرة.

ثانيهما الطريق البري: وهذا المسلك اتخذه الإسلام للدخول في شمالي وغربي أفريقيا وقد اعتمد هذا المسلك معبر سيناء الذي اختاره عمرو بن العاص رضي الله عنه لفتح مصر، وبعد أن استقر الأمر لجيوش الإسلام في مصر تطلعت إلى فتح شمالي أفريقيا، حيث اتجهت صوب برقة فتونس فالجزائر ثم المغرب. وما أن استقرت الدعوة في المغرب حتى بدأت تنتشر في أنحاء شمال افريقيا واتجهت نحو جنوبي الصحراء الكبرى عبر طرق القوافل التي تطورت إلي طرق الحج والتي كان لها اعظم الاثر في انتشار الاسلام والثقافة العربية في افريقيا.

7-طرق الحج:

منذ أن فرض الله الحج على المسلمين في السنوات الأولى من الهجرة وقلوبهم مشدودة إلى بيت الله العتيق، لتأتيه من كل فج عميق، فظلت الركبان تفد إلى مكة عبر دروب مختلفة ومن أقطار شتى. ونشأت من طرق الحج منافع متنوعة، منها الدينية، والثقافية، والاقتصادية، والاجتماعية، والعمرانية، وما فيها من وقائع تاريخية من هجرات في صورة فردية أو جماعية، نقلت عبر هذه الطرق الكتب، والأموال، والصناعات، إلى جانب العادات والتقاليد، والثقافات، والأفكار، والمهارات، بالإضافة إلى الأثر البالغ في صياغة مجتمعات إسلامية متلاحمة الأواصر، متقاربة العادات

والتقاليد برغم تباعد ديارها واختلاف لهجاتها وأعراقها، يظهر ذلك في تشابه بعض العادات والملابس والأدوات التي كان الحج مصدراً لتقاربها.

ولقد مر أكثر من خمسة عشر قرناً على هذه النظام السنوي المستمر عبر طرق الحج في الإسلام، ونشأت عن ذلك وقائع تاريخية كثيرة، وتكونت علاقات بين الأفراد والشعوب لا تحصى، وأثمرت هذه العلاقات بنتائج عديدة ومفيدة على طول طرق الحج. وكان المسلمون يتحملون جميع أنواع المصاعب في السفر من أقاصي الدنيا إلى بيت الله الحرام في كل عام، بكل وسائل السفر التي كانت متاحة لهم في ذلك الزمان، تحت ظلال الشراع في البحر وعلى ظهور الإبل في البر، ومنهم من يسافر مشياً على الأقدام، كما يقول تعالي: "يأتوك رجالاً".

8–دور طرق الحج في انتشار الثقافة العربية والإسلامية:

كان للحج دور كبير في نقل اللغة العربية والثقافة الإسلامية إلى القارة الافريقية، فقد كان بعض الحجاج يبقون في الحجاز بعد اداء فريضة الحج للدراسة وتحصيل العلم والمعرفة، ثم يرجعون إلى بلدانهم لنشر العلم الذي نالوه في الحجاز، ومعهم بعض الكتب الإسلامية والعربية، وكان بعض الأمراء والملوك الأفارقة حين حجهم يستقدمون إلى بلدانهم بعض العلماء لتعليم الإسلام واللغة العربية، ويجلبون معهم كتباً في العلوم الإسلامية والعربية، وبهذه الطرق وصلت كتب كثيرة إلى أرض إفريقيا، مما ساعد على انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية.

وأصبحت بذلك اللغة العربية هي لغة الدين والثقافة والحياة الإدارية وغيرها، وأصبح الحرف العربي هو الحرف الذي تُكتب به أشهر اللغات الإفريقية، مثل الهوسا والفلانية والسواحلية وغيرها، وأصبحت كل المناطق التي تأثرت بذلك النشاط عظيمة الحضارة والتقدم بسبب الإسلام ولغته. وسرعان ما شكّل الإسلام عادات السكان وطور أحوالهم (طرخان؛ إبراهيم، 1968م، ص 19.).

نتيجة للنشاط التجارى الواسع الذي ساد القارة الافريقية، في شمالها ووسطها وغربها وشرقها وما نتج عنه من انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية، نشطت قوافل الحج التى كانت فى الوقت نفسه قوافل للتجارة التى كان يمارسها الحجاج على طول طريقهم إلى الأراضى المقدسة، وقوافل لتحصيل العلم عن طريق الالتقاء بعلماء البلدان التى يمرون بها، فكانت تخرج من غرب القارة قوافل عديدة

على رأسها ملوك هذه البلدان، الذين كانوا يحرصون على أداء هذه الفريضة رغم ما كانوا يتكبدونه من مشاق ومتاعب، نظرًا لطول الطريق ومخاطره ووعورته، لكنهم كانوا يخرجون فى رحلة قد تستغرق عامًا أو عامين ويلتقون فى موسم الحج بإخوانهم المسلمين على اختلاف بلادهم وألسنتهم وألوانهم، فيشعرون جميعًا بالأخوة الإسلامية، ويشعر الإفريقى بانتمائه إلى عالم إسلامى واسع، وبأخوته لمسلمى ذلك العالم، فتتحطم الحواجز العرقية والقبلية واللغوية والاجتماعية، ويصبح الجميع شعبًا واحدًا يتكلمون بعبارات واحدة، ويتجهون إلى قبلة واحدة، ومن ثم أصبح خروج المسلمين من غرب إفريقيا ووسطها وشرقها جماعات وفرادى إلى الحج، واتصالهم بالشعوب الإسلامية المختلفة فى بلاد الحجاز أو أثناء رحلة الذهاب والعودة تأكيدًا لروح الأخوة الإسلامية التى فرضها الإسلام، فيعود هؤلاء الأفارقة ممتلئين بالحماسة لنشر هذا الدين، وَوَقْف جهودهم على إعلاء شأنه فى بلادهم وما جاورهم من البلاد الوثنية، خاصة أن هؤلاء الحجاج كانوا يعودون محملين بالكتب الدينية التى تزيد من علم الأفارقة وثقافتهم كما كانوا يعودون أحيانًا مصحوبين ببعض الدعاة والفقهاء والتجار من غير الأفارقة، مما كان له أثره فى نشر الإسلام، لاسيما وأنهم كانوا يقومون بإنشاء المدارس لتعليم اللغة العربية وتحفيظ القرآن الكريم ونشر الإسلام بين الوثنيين، ونشر عقائده الصحيحة بين المسلمين الأفارقة.

وكان المسلمون الجدد من هؤلاء الأفارقة يرون ارتفاع المكانة الاجتماعية لإخوانهم وأقربائهم من الذين أدوا هذه الفريضة، فيقدمون هم الآخرون عليها، ولذلك تعددت قوافل الحج التى كانت تخرج من هذه البلدان، والتى كانت تضم آلافًا مؤلفة وعلى رأسها الملوك والحكام فى أحيان كثيرة .

ومن أشهر الملوك الذين أدوا هذه الفريضة من حكام إفريقيا " منسي موسى" امبراطور مملكة "مالى الإسلامية"، الذى خرج إلى الحج من هذا المكان النائى فى غرب القارة على رأس موكب كبير تحدث عنه المؤرخون، وذلك فى عام (723هـ – 1323م) إذ كان موكبه يضم أكثر من عشرة آلاف حاج، وكان يحمل معه كميات كبيرة من الذهب الخام، أهدى منه إلى سلطان مصر وأمرائها وموظفيها، كما أفاض منه على فقراء مكة و المدينة، ومَنَحَ عن سعة حتى قيل إن قيمة الذهب انخفضت فى مصر انخفاضًا ملحوظًا لكثرة ما أنفقه فيها .

كذلك تحدثنا المصادر بأن ملوك سلطنة صنغى الإسلامية التى خلفت سلطنة مالى فى غرب إفريقيا قاموا بأداء هذه الفريضة، ومن أشهرهم السلطان "أسكيا محمد الأول" فى عام (495هـ-1101م)، وقد أدى بعض سلاطين الكانم و البرنو الذين كانت دولتهم تقوم حول بحيرة تشاد الحج ثلاث مرات، وبعضهم تُوفِّى أثناء الذهاب أو العودة ودفن فى مصر. وكان حكام بلاد السودان الحالي، والصومال و الحبشة وشرق إفريقيا بصفة عامة يؤدون هذه الفريضة فى سهولة ويسر، نظرًا لقربهم من بلاد الحجاز، وكانوا يحرصون على ذكر لقب الحاج قبل أسمائهم مثلما كان يفعل إخوانهم فى شمال إفريقيا وغربها، حتى السلاطين أنفسهم، مما يدل على أهمية هذه الشعيرة لديهم، وعلى أن تأثيرها فى نفوسهم كان قويا، ولذلك كانوا يعودون من هذه الرحلة ممتلئين حماسة للإسلام ولنشره بين من لم يعتنقه من الوثنيين فى بلادهم وقراهم .

وتطالعنا المصادر التاريخية أنَّ السلطان الأسكيا الحاج محمد كان حريصاً على الاقتداء بالدعاة المسلمين، وعلى إرسال طلاب العلم إلى تلك المنارات العربية الإسلامية في الشمال الإفريقي، مثل فاس والقاهرة وطرابلس، لينهلوا من منابعها ويعودوا إلى أوطانهم ليسهموا بشكل أو بآخر في نشر الإسلام بين ربوعها. وقد وجد الدعاة تشجيعاً كبيراً من الأسكيا الحاج محمد ومن جهاته الرسمية، وفي ظل هذا التشجيع بدأ الدعاة والفقهاء والمحسنون في تأسيس المدارس التي كانت قُبلة لأبناء المسلمين والوثنيين على حد سواء دون تمييز، الأمر الذي أدى إلى انتشار الإسلام والثقافة العربية الإسلامية بنجاح باهر بين أهالي إفريقيا الغربية. وأصبحت هذه المدارس تتكاثر وتزدهر، حتى إنَّ بعضها أضحى مركز إشعاع حضاري يستقطب أبناء مملكة سنغي بصفة خاصة، وأبناء إفريقيا الغربية بصفة عامة، دون اعتبار لفارق الدين أو اللون (التكتيك؛ جميلة محمد، 1998م، ص 157).

وتجلت مظاهر الحضارة العربية الإسلامية في سنغي في عهد الأسكيا محمد وخلفائه، وترتب عليها تكوين حكومة ونظم إدارية متقدمة، بحيث انتقلت من حياة المجتمعات القبلية المتفككة إلى مجتمع الدولة المركزية، وحدث الامتزاج الكامل بين النظم العربية الإسلامية والأنماط الإفريقية المحلية، وتكوّن عنصر جديد يوائم بين ما غرسه الإسلام من ثقافة عربية، وبين بعض الموروث من التقاليد والأنماط الإفريقية، أي برزت الشخصية الإفريقية في إطار إسلامي.

9-رحلات الحج وأثرها علي غرب وأواسط افريقيا ثقافيا ودينياً:

يرجع الفضل في انتشار الإسلام في السودان الغربي إلى بلاد المغرب عبر الصحراء الكبرى والحقيقة أن السودان الغربي ارتبط ببلاد المغرب بعلاقات اقتصادية منذ أقدم العصور، حيث كان سكانه يستوردون مادة الملح الموجودة من بلاد المغرب وبالمقابل كان التجار المغاربة يستوردون الذهب من بلاد السودان الغربي. وقد أشار الجغرافيون العرب إلى أن بلاد السودان كانت غنية بالذهب (محمود؛ حسن أحمد، 1426هـ/ 2006م، ص161).

وكما يري الباحث انه قد قامت في غرب افريقيا ممالك اسلامية قوية كانت مراكز للإشعاع الحضاري والثقافة الإسلامية. وقد لعبت دوراً كبيراً في نشر الاسلام في غرب افريقيا وانتقلت تاثيراتها إلي اواسط افريقيا عبر طرق القوافل وطرق الحج التي كانت معبراً اساسياً لانتقال الاثر الثقافي والعرقي والديني إلي افريقيا. وتمثلت هذه الممالك الإسلامية في ممكلة غانا ومالي وسنغي في غرب افريقيا وما جاورها من بلاد السودان الاوسط في كانم وبرنم وباقرمي ووداي.

وتعود البدايات الأولى لانتشار الإسلام في السودان الغربي إلى أيام الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب في القرن الأول الهجري، حيث وصل عقبة بن نافع سنة 22هـ/643م إلى زويلة على الحدود بين بلاد المغرب والسودان الغربي (الحميري؛ أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم،1404هـ/ 1984م ، ص 295.). ثم واصل فتوحاته في شمال إفريقيا في أيام الدولة الأموية حتى وصل إلى أغمات، وتذكر بعض الروايات أنه توغل في غرب إفريقيا حتى وصل إلى بلاد غانة والتكرور (حسن؛ محمد نبيلة، 1427هـ/ 2007م ، ص 68).

ويشير الرحالة الألماني بارث (Barth) إلى أن الإسلام وصل إلى غانة من بلاد السودان الغربي منذ سنة 60هـ/680م وأن عقبة بنى مسجداً هناك، وهذه الرواية تعني أن مملكة غانة كانت عظيمة الاتساع بحيث وصلت حدودها لتتاخم الحدود الجنوبية لشمال إفريقيا وبعد وفاة عقبة سنة 64هـ/683م أسندت الدولة الأموية مهمة مواصلة الفتوحات الإسلامية في شمال إفريقيا إلى واليها موسى بن نصير سنة 86هـ/705م الذي وصل إلى حدود السودان الغربي الشمالية عند مدينة أغمات وبنى فيها مسجداً (زهرة؛ عبد الغني عبد الفتاح، 1428هـ/ م 2007، ص193). وأول إشارة

واضحة لقيام الدولة الأموية بإرسال حملة منظمة إلى بلاد السودان الغربي يوردها خليفة بن خياط في تاريخه في أحداث سنة (116هـ/734م) فيقول: (وفيها سير ابن الحبحاب عبد الرحمن بن حبيب، أبي عبيدة بن عقبة بن نافع إلى السوس وأرض السودان فظفر وأصاب ذهباً كثيراً) (ابن خياط ؛ أبو عمر خليفة، 1397هـ/ 1977م، ص224).

والمقصود بأرض السودان في رواية خليفة هو السودان الغربي حيث تشير الرواية إلى أن المسلمين عادوا معهم الذهب مما يرجح أن يكون عبد الرحمن بن حبيب قد دخل بلاد السودان الغربي سنة 116هـ/734م.

وفي العصر المملوكي زاد اتصال مصر بغرب إفريقيا من خلال القوافل التجارية التي كانت تتردد بين مصر وغرب إفريقيا، وكان الحج من أهم عوامل تدعيم العلاقات بين مصر وبين هذه البلاد إذ يبدوا أن حجاج غرب إفريقيا كانوا يمرون بمصر في طريقهم إلى الحج وبعد عودتهم منه، وهناك اتصال منذ القدم بين غرب إفريقيا وبلاد المغرب عبر الصحراء الكبرى، ولا يمكن لأي باحث أن يفهم تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا إلا في ضوء تاريخ المغرب وأحداثه (محمود؛ حسن احمد، 1426هـ/ 2006م، ص 159، 162). ويمكن القول أن العامل الحاسم المؤثر في انتشار الإسلام في غرب إفريقيا يتمثل في هجرات البربر نحو غرب إفريقيا ومن ثم دخولهم في الإسلام منذ عهد موسى بن نصير ولكن الجهود الحقيقية لنشر الإسلام في غرب إفريقيا تمت في عهد الأدارسة حيث تأكد إسلام هذه القبائل منذ القرن الخامس الهجري (قداح؛ نعيم ، بدون ، ص 85).

وكان للمرابطين أثر كبير في نشر الإسلام في ربوع السودان الغربي وقد دخلوا إلى غرب إفريقيا عن طريق النهاية القصوى لسهل المحيط الأطلسي ثم انحدروا جنوبا حتى حوض السنغال ثم وقفوا عند حدود المنطقة الاستوائية. ويمكن القول إن انتشار الإسلام إلى غرب إفريقيا تم من خلال طريقين، الأول : الطريق الساحلي عبر حوض السنغال وهو الذي سلكته جموع المرابطين والثاني : تسرب الإسلام في مدن إفريقيا الشمالية إلى بعض المراكز القائمة على حافة الصحراء عن طريق التجارة (محمود؛ حسن احمد ،2004م، ص58).

ومما سبق نستنتج أن الإسلام لم يصل إلى هذا الجزء من القارة الإفريقية عن طريق جيوش الفتوحات الإسلامية، بل انتشر بالطرق السلمية من خلال الدعاة والتجار والحجاج مع الإقرار بحقيقة

مهمة وهي أن الفتوحات الإسلامية لشمال إفريقيا مهدت الطريق أمام الجميع لممارسة هذه المهمة العظيمة لنشر الإسلام جنوب الصحراء الكبرى وتحديداً بلاد السودان الغربي.

ومما أعطى رحلات الحج أهمية كبيرة هو قيام ملوك مالي وسنغاي بالتوجه إلى مكة لأداء فريضة الحج ومن هؤلاء الملوك نذكر ملك مالي موسى كيتا (669-673هـ/1270-1274م) الذي حج خلال فترة حكمه ثلاث مرات ومن بعده الملك منسى ولي(652-669هـ/1255-1270م) الذي حج زمن السلطان الظاهر بيبرس ثم الملك ساكورة(684-700هـ/1285-1300م) الذي حج زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ومن ملوك سنغي الذين قاموا بأداء فريضة الحج الملك أسكيا محمد(893-921هـ/1493-1521م) الذي زار مصر في طريق عودته. ويعد الملك منسى موسى(712-737هـ/1312-1337م) أشهر ملوك مالي، وكانت حجته سنة 724هـ/1325م أشهر حجة قام بها ملك من ملوك افريقيا حيث رافقه في موكبه خلق كثير (حسن؛ محمد نبيلة، 1427هـ/ 2007م ، ص 209 وما بعدها). وقد كان لرحلات منسي موسي للحج كما يري الباحث الاثر البالغ في التأثيرات العرقية والثقافية التي حدثت بسبب الاحتكاك بالثقافة العربية والإسلامية وللتزاوج واستقرار بعض الحجاج في مناطق مختلفة من طريق الحج واختلاطهم وتزاوجهم مع السكان المحليين بالإضافة إلي استصحاب الحجاج الافارقة لبعض العلماء من العرب والمسلمين إلي بلادهم وتزاوجهم واستقرارهم بالبلاد الافريقية كل ذلك قد ظهر جلياً اثره العرقي والثقافي في افريقيا.

لقد كان من نتائج رحلات الحج من بلاد السودان الغربي توفير فرصة للحجاج لتعلم أمور دينهم من خلال الاحتكاك بإخوانهم المسلمين أثناء أداء شعائر الحج، وأثناء مرور الحجاج بالمراكز العلمية المشهورة في ذلك الوقت تمكن الحجاج من الالتقاء بالعلماء والفقهاء واطلعوا على مؤلفاتهم في شتى العلوم، ويعود الحجاج بعد ذلك بحماسة عالية وهمة كبيرة لتعليم الناس أمور دينهم بعد عودتهم من الحج، وبنظرة سريعة إلى رحلة الحج التي قام بها ملك مالي (منسى موسى) سنة 724هـ/1325م والسلطان (أسكيا محمد) سلطان سنغي سنة899هـ/1998م ندرك أهمية هذه الرحلات، فالملك (منسى موسى) عاد إلى بلاده وبصحبته كلٌ من الفقيه المالكي عبد الرحمن التميمي الذي عمل على نشر الإسلام في مالي، كما كان بصحبته الشاعر الأندلسي إبراهيم الساحلي الذي اشتهر عنه مهارته في فن العمارة، حيث قام ببناء المساجد والقصور في مدينة جاو

وتنبكت مما كان له أكبر الأثر في تطور فن العمارة في بلاد السودان الغربي. ومن مصر اشترى هذا الملك كتباً كثيرة في الفقه المالكي، أما السلطان (أسكيا محمد) سلطان سنغي فقد تأثر بما رآه في مصر من نظم الحكم والإدارة فعاد إلى سنغي ليطبق الكثير من هذه النظم في بلاده كما اتصل بعلماء مصر أمثال الإمام السيوطي (ت 911هـ/1512م) ولذلك عندما عاد إلى سنغي نراه يحيط نفسه بالعلماء والفقهاء ويكرمهم ويشجع على طلب العلم، ويولي جامعة تنبكتو عناية خاصة (ابن خلدون؛ عبد الرحمن بن محمد، 1406هـ/1986م، ص 143).

10-المؤثرات العرقية والثقافية والدينية للهجرات عبر طرق الحج في افريقيا:

كان لتحركات القبائل وهجراتها عبر طرق الحج سواء أكانت عربية أم بربرية أم سودانية وزنجية دور كبير فى نشر الإسلام وثقافته، واللغة العربية وثقافتها فى القارة الإفريقية .

ومن أهم هذه الهجرات هجرات العرب إلى بلدان القارة المختلفة، وكانت مصر هى القاعدة والمنطلق الذى انطلقت منه هذه الهجرات العربية غربًا إلى شمال إفريقيا، وبلاد النوبة أو السودان، فقد هاجرت جماعات عربية من ربيعة و جهينة و بلى إلى أرض البجة منذ منتصف القرن السابع للميلاد، ونجحوا فى نشر الإسلام بين الأهالى، ودفعت شهرة وادى العلاقى الذى يقع فى الصحراء الشرقية بين أسوان و البحر الأحمر بالذهب والزمرد إلى جذب جماعات كبيرة من ربيعة و جهينة منذ عام (238هـ -852م) إلى هذه المنطقة، حيث استقر العرب هناك وتزاوجوا مع البجة وأقاموا إمارة عربية مدت نفوذها إلى أسوان وشمال بلاد النوبة، حيث صاهروا حكام مملكة المَقُرة النوبية المسيحية، ونتج عن ذلك انتقال الحكم إلى هؤلاء العرب من الذين عرفوا باسم بنى الكنز نسبة إلى لقب كان قد أطلقه أحد الخلفاء الفاطميين فى مصر على أحد أمرائهم نظير مساعدته لهذا الخليفة فى القضاء على أحد الثائرين والخارجين على دولته فى صعيد مصر. وتطورت أحوال بنى كنز هؤلاء حتى استطاعوا أن يقيموا دولة "بنى كنز" العربية في بلاد النوبة واتخذوا دنقلا عاصمة لهم منذ عام (723هـ - 1323م) (حسن؛ يوسف فضل،1427هـ /يونيو 2006م، ص 18).

وبقيام هذه الدولة انفتح باب الهجرة العربية على مصراعيه، فهاجرت قبائل عربية كثيرة إلى وسط السودان، وأقاموا بين نهرى النيل الأبيض و الأزرق، وتحالفوا مع قبائل سودانية تسمى الفونج،

وقضوا علي مملكة علوة المسيحية في سوبا، واستطاعوا أن ينشئوا معًا دولة إسلامية أخرى هى دولة الفونج التى كانت عاصمتها سنار. كذلك هاجرت قبائل عربية كثيرة من مصر إلى مملكة دارفور الوثنية منذ القرن الحادى عشر للميلاد، ووفدت إلى هذه المملكة هجرات عربية أخرى من تونس وشمال إفريقيا، واختلط هؤلاء المهاجرون بالأهالى وصاهروا ملوك دارفور، ونتج عن هذه المصاهرة انتقال الحكم إليهم، فأصبحت دارفور سلطنة عربية إسلامية منذ عام (849هـ = 1445م) (حسن؛ يوسف فضل،1427هـ /يونيو 2006م، ص 23).

كانت رحلات العلماء المتجولين ورجال الطرق الصوفية من سودان وادي النيل ورصفائهم من بلاد السودان الوسطي مصدر تفاعل ثر. وكان المذهب المالكي يربط بين مواطني بلاد المغرب وغرب افريقيا ووادي النيل الاوسط، كما كانت الطريقة القادرية ذات نفوذ كبير بين سائر المسلمين في المنطقة.

وكانت سلطنات وادي النيل معبراً رئيسياً لطريق الحجيج المسلمين الذي يبدأ من اقصي الغرب في موريتانيا، السنغال، وكانت قافلة الحجيج التي تجمع الحجيج والعلماء والتجار واصحاب الحرف مركز تلاقح ثقافي فريد. وكثيراً ما يتخلف بعض الحجيج عن الركب. وكانت سلطنات وادي النيل منطقة جاذبة لكثير من سكان غرب افريقيا، ولقد ذادت الهجرة إلي نفس المنطقة عند قرب ظهور المهدي المنتظر في نهاية القرن الرابع عشر الهجري، استجابة لتوجيه المصلح الكبير الشيخ عثمان دانفوديو مؤسس دولة سوكتو في نيجيريا الذي امرهم بمبايعته (حسن؛ يوسف فضل،1427هـ /يونيو 2006م، ص 23).

كذلك تواصلت الهجرات العربية إلى بلاد الزيلع والحبشة، وهى المنطقة التى تعرف الآن باسم منطقة القرن الإفريقى. ومنها هجرة ود بن هشام المخزومى فى عصر عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – وقد تبع ذلك هجرات عربية استقرت على طول ساحل هذه المنطقة، وأقامت فى المدن الساحلية التجارية، مثل سواك و باضع (مصوع) وزيلع، وانطلقت إلى الداخل وسكنت مع الأهالى واشتغلت بالتجارة والزراعة والرعى، وازداد عددها حينًا بعد حين حتى تمكنت من إقامة سلطنات إسلامية، مثل سلطنة شوا ،سلطنة أوفات وسلطنة عدل الإسلامية .

وقد ازدادت هجرات العرب على ساحل شرق إفريقيا وأنشئوا مراكز تجارية بطول هذا الساحل، حتى قال بعض المؤرخين إنهم أنشئوا ستا وثلاثين مدينة، بدءًا من مقديشيو فى الصومال وحتى سوفالة جنوب نهر الزمبيزى فى موزمبيق.

ومن أشهر هذه الهجرات هجرة سليمان و سعيد ابنى عباد بن عبد بن الجلندى، وكانا ملكين فى عُمان، واضطرتهما ظروف القتال مع الحجاج بن يوسف الثقفى، الذى أراد أن يفرض نفوذه على عمان بالقوة المسلحة، إلى ترك وطنهما والاتجاه فى سفن إلى ساحل شرق إفريقيا، حيث وصلا ومن معهما من رجال وجند وأهالى إلى جزر "أرخبيل لامو" التى تقع فى دولة كينيا الآن، وذلك فى الفترة (75 – 85هـ = 694 – 704م)، واستقروا هناك وأنشئوا إمارة صغيرة كان لها أثرها فى نشر الإسلام بين الأهالى الموجودين فى تلك المنطقة .

كذلك هاجر بعض الشيعة الزيدية إثر مقتل إمامهم زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب فى عام (122هـ – 741م) على يد الخليفة الأموى هشام بن عبدالملك، فاضطر أتباعه بعد مقتله إلى الهجرة خوفًا من اضطهاد الحكام لهم، فوصلوا إلى ساحل "بنادر" بالصومال، وأقاموا هناك نحو مائتى عام أرسوا فيها قواعد الإسلام والثقافة الإسلامية بين الصوماليين (محمود؛ حسن احمد، 2006م، ص 398) .

ولم تلبث أن وفدت هجرة أخرى إلى هذا المكان نفسه تعرف باسم هجرة الإخوة السبعة، جاءت من "الأحساء" فى عام (292هـ – 904م) ووصلت إلى ساحل بنادر بالصومال، بعد أن ضاق بهم المقام فى منطقة الخليج، نتيجة لصراعات سياسية ومذهبية، وكان هؤلاء الإخوة من قبيلة الحارث العربية، ولما وصلوا إلى هذا الساحل استطاعوا أن يطردوا الزيدية إلى الداخل. وأن ينشئوا مدينة مقديشيو فى عام (295هـ– 907م) ويتخذوها عاصمة لدولتهم التى أقاموها هناك، والتى كانت تعرف باسم سلطنة مقديشيو الإسلامية. وبذلك ظهر إلى الوجود مركز إسلامى كبير كان له أثره القوى فى نشر الإسلام لا بين الصوماليين فحسب، بل بين كثير من سكان شرق إفريقيا كله .

وقد أعقب تلك الهجرة هجرة شيرازية فارسية أتت من شيراز بإيران، كان على رأسها أمير يدعى على بن حسن بن على الشيرازى، وذلك فى عام (365هـ – 975م) نتيجة خلافات وقعت بينه وبين إخوته فى شيراز، اضطرته إلى الهجرة هو وأتباعه ورجاله فى سبع سفن ضخمة إلى شرق إفريقيا،

حيث استقر بهم المقام فى جزيرة "كلوة" التى تتبع دولة تنزانيا الآن، واستطاع أن يؤسس سلطنة إسلامية تسمى مملكة كلوة، ظل يحكمها هو وأحفاده نحو قرنين من الزمان حتى أتت هجرة عربية أخرى من اليمن من بنى الحسن بن طالوت المهدلى، وحكمت هذه السلطنة، ومن ثم تغلبت الصبغة العربية فيها على الصبغة الشيرازية الفارسية واستمرت هذه السلطنة قائمة حتى جاء البرتغاليون وتغلبوا عليها فى عام (911هـ -1505م) (زكي؛ عبد الرحمن ، 1965م ،ص 77).

ونتيجة لهذه الهجرات العربية المتتابعة انتشر الإسلام واللغة العربية بين السكان المحليين فى منطقة القرن الإفريقى، وفى منطقة الساحل الشرقى لإفريقيا، وكذلك فى الجزر المواجهة لهذا الساحل، مثل جزيرة زنجبار، و جزر القمر، و جزيرة مدغشقر وغيرها من الجزر، وتكوَّن عالم إسلامى واضح المعالم والقسمات، نشأت فيه دول وسلطنات إسلامية ظلت موجودة حتى اصطدمت بالبرتغاليين والأحباش، ثم بالاستعمار الأوروبى فى العصر الحديث .

كذلك خرجت هجرات عربية من مصر فى اتجاه الغرب إلى بلاد المغرب العربى منذ عصر الفتوحات الإسلامية فى القرن الأول للهجرة، وظلت هذه الهجرات تتتابع حتى القرن الخامس للهجرة، حيث نزح من مصر إلى هناك بنو هلال و بنو سليم، ولاشك أن الحكم العربى الإسلامى لهذه البلاد بالإضافة إلى هذه الهجرات قد أديا فى النهاية إلى تعريب أهل البلاد الأصليين، فانتشرت بينهم اللغة العربية وأصبحت لسانهم، وغدت هذه البلاد بلدانًا عربية إسلامية، وقد انطلقت من هذه البلاد هجرات عربية لكنها كانت قليلة العدد قليلة الأفراد، اتجهت جنوبًا إلى الصحراء الكبرى ومنها إلى حوض نهر السنغال و النيجر، وحوض بحيرة تشاد مثل بنى جذام وبنى حسان وبنى معقل وأولاد سليمان و جهينة وغيرهم، واستقرت هذه القبائل هناك ولا تزال توجد إلى الآن بعض هذه القبائل التى تحتفظ بأصولها العربية، ولكن نظرًا لقلة هذه الهجرات وقلة عدد أفرادها فإنها لم تؤدِّ إلى انتشار اللغة العربية بين الأهالى هناك، وكانت لغة العلم والتعليم والتجارة والوثائق الرسمية للدولة فقط، ولما جاء الاستعمار الأوربى إلى هذه البلاد حارب هذه اللغة وحارب الإسلام بكل ما يستطيع من قوة.

وإذا كان العرب قد هاجروا إلى البلدان الإفريقية فى مختلف أنحاء القارة، وكان لهم أثرهم الكبير فى نشر الإسلام ولغته وثقافته، وكذلك فى إقامة سلطنات إسلامية، فقد كان لهجرات البربر أثر كبير أيضًا فى هذه الميادين، وخاصة بربر صنهاجة، الذين كانوا يسكنون الصحراء الكبرى،

واستطاعوا نتيجة لجهود داعية عظيم وهو الشيخ عبدالله بن ياسين الجزولى أن يقيموا دولة المرابطين منذ عام (448هـ – 1056م)، وأن يضموا إليها بلاد المغرب الأقصى وبلاد الأندلس، ثم مملكة غانة الوثنية، وانطلق دعاتهم بين أهالى غانة والسودان الغربى ينشرون الإسلام، كذلك وفد كثير من قبائل البربر الأخرى إلى هذه البلاد مهاجرين إليها، واستقروا فيها وأنشئوا المدن والمراكز التجارية مثل مدينة أودغشت ومدينة تمبكتو وغيرهما .

كما هاجرت قبائل من البربر منذ ما قبل الإسلام إلى حوض بحيرة تشاد وأقامت دولة هي دولة الكانم والبرنو، ولم يلبث ملوك هذه الدولة أن اعتنقوا الإسلام فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد، وظلوا يحكمون هذه البلاد وينشرون الإسلام فيها حتى القرن التاسع عشر .

كذلك كان لهجرات النوبيين والصوماليين والجلا والأعفار والزنوج أثر كبير فى نشر الإسلام فى منطقة القرن الإفريقى، وفى ساحل شرق إفريقيا، وكانت هذه الهجرات وراء توسع السلطنات الإسلامية التى قامت فى هذه المنطقة، وساعدتها فى رد عدوان الأحباش على المسلمين فى منطقة القرن الإفريقى وخاصة فى القرن السادس عشر الميلادي.

بعد أن استوطن الاسلام في كل ربوع القارة الافريقية كما بَّينا ذلك وقامت الممالك الإسلامية بها، فقد سارت ركبان الحج من غرب إفريقيا نحو مكة المكرمة عبر الزمن الطويل في رحلات تستغرق سنوات وربما العمر كله، حتى أتاه عصر صارت فيه الرحلة التي هي مجرد ساعات قلائل ويصل الحاج فيها لمكة ملبياً نداء ربه حاجاً إلى بيته المعمور يطلب الغفران والرضى والرحمة. هذه الرحلة وطريق الحج الطويل من غرب إفريقيا وأواسطها قد احدث أثراً بالغاً لقرون طويلة على مجتمعات السودان وتشاد والنيجر وليبيا ودول الشمال والغرب الافريقي إلى أرض الحجاز، ولم يحدث في التاريخ البشري أن ترك مهاجرون ومرتحلون من منطقة إلى منطقة أثراً يبقى اكثر مما تركه المسلمون من غرب إفريقيا الطالبون الحج لبيت الله الحرام على المناطق التي عبروها، ولم يقتصر الأثر على العادات والتقاليد وأنماط الثقافة واللغة والتأثيرات الحضارية المتحركة معهم ومدارسهم الفقهية والمذهب المالكي وكتبهم وقراءاتهم للقرآن الكريم على روايات مختلفة وغير ذلك، إنما امتد الأثر للدم السوداني نفسه الذي اختلط بدماء القادمين الذين كانوا يستقرون في مناطق السودان

المختلفة بعد أن تنقطع بهم السبل أو يطيب لهم العيش، بل يستدعون بقية أهلهم للمجيء واللحاق بهم في أرض السودان الخصبة الطيبة.

تبدأ رحلة الحاج من أرضه وموطنه في دول الغرب الإفريقي وممالكها القديمة، من دول حوض نهر النيجر أو سهول فولتا العليا أو الدول المطلة على شاطيء الأطلسي حيث شهد التاريخ قيام ممالك وسلطنات إسلامية عريقة هناك، يجمع الحاج كل ما اقتناه في الدنيا وما ادخره لتحقيق حلم حياته الوحيد وهو الحج، فهو أمنية غالية في تلك الحقب يعيش من أجلها المسلم تحرِّكه أشواقه وتحرقه لواعج الهيام بأرض الحرمين وتختلط في نفسه المشاهد والصور التي ألهمته لها حياته الإسلامية وقصص السيرة والتاريخ والمعاجم وكتب التفاسير وسائر العلوم الإسلامية التي تصنع الخيال الكامل للمسلم البعيد وتصبح ذخيرة له تضيء بها نفسه وتنبعث منها إشراقات رغباته وتطلعه.

يحمل الحاج كل متاعه في الدنيا ويكتب وصيته لأن الرحلة كانت تستغرق سنوات طويلة، يصحب معه زوجاته وأولاده وأهله الأقربين ومن يريد الحج معه وفي رفقته، وتخرج القوافل كلها في طريق واحد تتجمع أغلبها في تشاد أو النيجر حيث يخرج مسار آخر عن طريق طرابلس وطبرق وبرقة ومصر، يلتقي بطرق الحجيج القادمين من المغرب العربي وبلاد شنقيط، والطريق الرئيس هو الذي يعبر السودان، تتكون القافلة من الحجيج وعائلاتهم وتضم الفقهاء ومعلمي القرآن الكريم والتجّار، ويمرون بديار الممالك الإسلامية القديمة في تشاد الباقرمي ووداي وقد يتخلّف بعضهم للإقامة هناك ممنياً النفس بمواصلة الرحلة، بينما يواصل الآخرون، وفي السودان بحدوده الحالية يدخلون في حماية سلطان سلطنة الفور أو الداجو أو سلطنة التنجر القديمة، أو سلطنة المساليت، وهنا يجدون معاملة خاصة واهتماماً كبيراً للغاية ويلتحق من أراد المواصلة للحجاز بالقوافل المتحركة عن طريق درب الأربعين في رفقة المحمل الذي يحوي كسوة الكعبة وعطايا سلطان الفور لأهل الحجاز، ويعتقد الكثير من أهل تلك البقاع الإفريقية البعيدة أن السودان جزء من أرض الحجاز، ويتعاملون مع أهله على هذا المفهوم، ويحبذ بعضهم تحقيقاً وتمتيناً لهذه الفكرة الإقامة فيه، ولذا تجدهم منتشرين في السودان كله خاصة قبائل الهوسا والفولاني والتكارير وكل القادمين من الغرب

الإفريقي النضير، ولا توجد مدينة في السودان ولا معابر النيل حيث الطريق المتجه نحو الأراضي المقدسة، إلا وفيها رسوخ لجموع حجاج بيت الله عبر التاريخ البعيد والقريب.

11-جهود علماء المسلمين في نشر الثقافة العربية والإسلامية في افريقيا:

انتشار اللغة العربية في إفريقيا قد بدا منذ وقت مبكر كما انه يصعب تحديده، لكن هناك بعض المصادر التي تذكر أن تجَّار المغرب ومصر كانوا يترددون على الأسواق الرئيسية في إفريقيا، وذلك في العقود الأخيرة للقرن السابع الميلادي الموافق للقرن الأول الهجري، ومن الطبيعي أن ينقل هؤلاء التجَّار لغتهم إلى القارة. خاصة في غرب افريقيا، أما شرقها وبخاصة الحبشة وما جاورها من البلدان مثل جيبوتي والصومال، فقد عُرفت اللغة العربية هناك منذ قرون قبل ظهور الإسلام، لصلتهم بأرض الحجاز واليمن.

ولكن من المؤكد أن انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية في إفريقيا قد واكب انتشار الإسلام، فهما متلازمان حيثما يدخل الإسلام تدخل معه اللغة العربية، ولا يكاد الإسلام يستقر في مدينة أو قرية حتى يفتح الدعاة أو التجار فيها مدرسة لتعليم القرآن الكريم ومبادئ الدين واللغة العربية التي لا يستطيع أحد أن يفهم الإسلام فهماً صحيحاً بدونها.

وكذلك كان للحج دور كبير في نقل اللغة العربية والثقافة الإسلامية إلى القارة، فقد كان بعض الحجاج يبقون في الحجاز بعد الحج للدراسة، وتحصيل العلم والمعرفة، ثم يرجعون إلى بلدانهم لنشر العلم الذي حصّلوه في الحجاز، ومعهم بعض الكتب الإسلامية والعربية، وكان بعض الأمراء والملوك الأفارقة حين حجهم يستقدمون إلى بلدانهم بعض العلماء لتعليم الإسلام واللغة العربية، ويجلبون معهم كتباً في العلوم الإسلامية والعربية، وبهذه الطرق وصلت كتب كثيرة إلى أرض إفريقيا، مما ساعد على انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية.

وأصبحت اللغة العربية هي لغة الدين والثقافة والحياة الإدارية، وأصبح الحرف العربي هو الحرف الذي تُكتب به أشهر اللغات الإفريقية، مثل الهوسا والفلانية والسواحلية والولفية، وأصبحت افريقيا عظيمة الحضارة والتقدم بسبب الإسلام ولغته، وسرعان ما شكّل الإسلام عادات السكان، وطور

أحوالهم، حتى صار مستوى التفكير والثقافة يقارن بنظائره، أو يفوقه في الدول المعاصرة لها، في تلك الفترة في أوروبا (طرخان؛ إبراهيم، 1968م، 24).

12-المؤثرات الثقافية لطرق الحج ودورها في ظهور المراكز العلمية بإفريقيا:

كان للممالك والعواصم والمراكز العلمية التي ذاع صيتها في غرب إفريقيا، مثل: تمبكتو وجنى وأغاديس وكنو وكتشنا، الفضل العظيم في نشر الثقافة العربية الإسلامية في المنطقة، ووصلت الثقافة العربية الإسلامية إلى ذروة ازدهارها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، وذلك في عهد إمبراطورية سنغي الإسلامية التي اشتهرت بكثرة علمائها ومؤلفاتهم العلمية التي أسهمت بدور كبير في نشر الثقافة الإسلامية في القارة الافريقية.

وقد حفلت مدينة تمبكتو العاصمة الثقافية لإمبراطورية سنغي بالعديد من مشاهير العلماء الذين ألفوا في شتى العلوم الدينية واللغوية والتاريخية. ومن أشهر علمائها، الشيخ أحمد بابا التمبكتي، والذي لم يحظ عالم في تمبكتو بمثل سعة علمه وشهرته، وكان عالماً موسوعياً، مؤرخاً، عالماً بالشريعة، ومن المتبحرين في اللغة العربية وآدابها، يذكر مترجموه أنه ألف ما يزيد على أربعين كتاباً. وقد درس في دولة سنغي وخارجها، وذلك في مدينة مراكش المغربية لما نُفي إليها، وحضر دروسه مئات من طلاب العلم في مراكش وخارجها (الولاتي؛ 1991، ص 36).

كان لانتشار الإسلام ومؤثراته علي افريقيا بعد قدوم العرب المسلمين إلى المغرب، وانتشار الإسلام فيه، فانه قد نمت الصلات القديمة التي كانت قائمة قوية وتضاعفت بين المغرب وبلاد السودان، ومكّنت الإبل التي أدخلها العرب إلى المغرب قبائل الأمازيغ المغاربة من تعزيز سيادتهم في الصحراء. وبدأ المغرب الإسلامي يؤثر في بلاد السودان على جميع المستويات، فالعلاقات بين الجانبين لم تعد هجرات واتصالات تجارية موسمية، أو مجرد احتكاك بين قبائل المغرب والمراكز الأمامية للشعوب الزنجية بهدف التجارة فحسب، بل اتخذت أيضاً طابع هجرات تتوغل نحو الجنوب في حركات مستمرة ملحة بقصد الإقامة الدائمة. وتصاهرت تلك القبائل مع أهل البلاد واختلطت بهم، فأثرت فيهم وتأثرت بهم وامتزجت الدماء العربية والأمازيغية بدماء الزنوج. واعتنق أهل البلاد الإسلام وتعلموا اللغة العربية، وتثقفوا بثقافتها. ونشأت طبقة جديدة عرف أفرادها بالمولدين.

لكن يبدو أن ذلك بدأ في القرن الثالث للهجرة، بعد إسلام قبائل الأمازيغ الملثمين (لمتونة، وجدَّالة، ومسوفة) واختلاطها بالعرب وتحالفها وتوجهها للجهاد ونشر الإسلام في السودان الغربي، ولا سيما بعد أن انتزعت القبائل المتحالفة من مملكة غانة مدينة أودغشت، بوابة بلاد السودان الجنوبية، ومفتاح الطرق المؤدية إلى المنطقة وجعلتها عاصمتها.

عموماً يري الباحث أن المؤثرات الثقافية والعرقية والدينية للحج ونشاط التجار والعلماء عبر طرق القوافل وطرق الحج قد بدأت واضحة من خلال ذلك السرد التاريخي لهذا التمازج الذي اختمر في افريقيا. بالإضافة إلي ذلك وكما هو معروف أنَّ ملوك الممالك الإفريقية وسلاطينها درجوا على الخروج إلى الحج في مواكب حافلة تضم أعداداً كبيرة من الأفارقة، وقد أسهمت هذه الرحلات الحجية في توطيد العلاقات التجارية والثقافية بين الممالك الإفريقية وأقطار المغرب العربي ومصر والحجاز، كما ساعدت على التعريف بتلك الممالك، ونتيجةً لذلك توافد إليها التجار والعلماء والفقهاء الذين جلبوهم معهم إلي افريقيا من شتى أرجاء العالم العربي والإسلامي، والذي ظهر جلياً من خلال هذا التماذج العرقي والثقافي في القارة الافريقية جميعها.

13-النتائج:

لا يخفى ما للحج من آثار في تهذيب النفوس وانه احد اركان الاسلام الخمسة لمن استطاع اليه سبيلا، ومن أجل هذا قام أهل افريقيا أو السودان كما يطلق عليها في كتابات الجغرافيون والمؤرخين العرب، وخاصة السودان الغربي والأوسط أو افريقيا الغربية الذين قاموا بتحمل المشاق والصعاب لأداء فريضة الحج، مما كان له أكبر الأثر على انتشار الإسلام في تلك البقاع من القارة الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى، هذا بالإضافة إلى آثار رحلات الحج الثقافية والعرقية والسياسية والحضارية على افريقيا.

فالدعاة، سواء أكانوا من العرب أم الوطنيين الأفارقة، وهم في ترحالهم عبر جميع المناطق الافريقية التي وصلوها يُعدون وسيلة من الوسائل التي ساعدت علي انتشار الثقافة العربية والإسلامية وعلى ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وقد كانوا يدعون الناس إلى الإسلام، ويفقهونهم في أمور دينهم، وذلك لإلمامهم بأصول الدين والشريعة الإسلامية ومبادئها السامية، لذا

حظي هؤلاء الدعاة بتقدير الأهالي لهم، إذ أصبح كثير من المناطق الافريقية داراً لاستقبال هؤلاء المعلمين الفقهاء الذين كانوا يعاملون بأعظم مظاهر الاحترام والذين كان لهم ابلغ الاثر في التأثير الثقافي والعرقي والديني.

كان لتأثير رحلات الحج علي افريقيا دوراً واضحاً في النواحي العرقية والثقافية والدينية، لان تلك الرحلات الطويلة والتي قد تمتد إلي اعوام قد استصحبت معها كثير من تلك المؤثرات من خلال وفود العلماء العرب إلي افريقيا او من خلال ابناء افريقيا الذين يدرسون العلوم الإسلامية بالحجاز ومصر ويعودون ليساهموا في نشر تلك الثقافة الإسلامية في بلدانهم، بالإضافة إلي استقرار بعضهم في بعض المناطق التي يعبرونها عبر طرق الحج مما يساهم في الاندماج العرقي والثقافي في افريقيا.

وتفترض الدراسة أن من أهم النتائج التي يمكن أن تخلص إليها هو أن لطرق الحج في افريقيا الدور الأكبر في مسالة التحول الحضاري الاسلامي بإفريقيا ثقافياً وعرقياً ودينياً، اذ بدت واضحة في مظاهر التمدن الحضاري والثقافي والفكري والديني والعرقي عبر ارتباط الافارقة بالعالم العربي والإسلامي مما يدحض آراء المستشرقين وأعداء الاسلام الذين يرون أن الاسلام قد انتشر في افريقيا بحد السيف.

14-التوصيات:

ونتيجة لما سبق فان الدراسة توصي بزيادة الاهتمام بالبحث العلمي في دراسة طرق الحج في افريقيا ودورها في انتقال الاثر الثقافي والعرقي والديني إلي افريقيا باعتبار انها ما تزال تحتاج للمزيد من الدراسات والبحوث خاصة وان هناك الكثير من المخطوطات الخاصة بذلك والتي لم يتم دراستها أو التحقيق فيها، وذلك من اجل المحافظة على هذا التراث الإسلامي المتجذر والعظيم.

في ظل المستجدات الدولية وما يرتبط بها من دور متنام للتكتلات والتجمعات الاقتصادية والسياسية والثقافية في الوقت الحالي توصي الدراسة، بأهمية تدعيم التعاون العربي الأفريقي على المستوى الحضاري استغلالا للمشتركات الحضارية والبشرية والتاريخية بين المجموعتين.

15-المصادر والمراجع:

(1) الإسلام واللغة العربية في السودان الغربي والأوسط، طرخان ؛ إبراهيم، مجلة أم درمان، العدد الثاني عام 1968م.

(2) الإسلام والثقافة العربية في إفريقية: محمود؛حسن أحمد، دار الفكر العربي، القاهرة، 1426هـ/ 2006م.

(3) الإسلام في إثيوبيا في العصور الوسطى: رياض ؛ زاهر، دار المعرفة القاهرة ، 1997م الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا: زكي؛ عبد الرحمن ، ط1 ، مطبعة يوسف، القاهرة 1965م.

(4) إفريقيا الغربية في ظل الإسلام ، الشركة الوطنية: قداح؛نعيم ، ط2،بدون، الجزائر.

(5) الروض المعطار في خبر الأقطار: الحميري؛أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت ،ط2 ،1404هـ/ 1984م.

(6) العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني: ابن خلدون؛ عبد الرحمن بن محمد، ج1، بيروت، عام 1406هـ/1986م.

(7) بعض مظاهر التواصل الإفريقي مجلة دراسات افريقية: حسن؛يوسف فضل، العدد الخامس والثلاثون– السنة الثانية والعشرون، جمادي الاول 1427هـ /يونيو 2006م.

(8) تاريخ خليفة بن خياط: ابن خياط ؛ أبو عمر خليفة ، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار القلم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2 عام 1397هـ/ 1977م.

(9) تاريخ إفريقية الإسلامية: انتشار الإسلام في السودان الغربي من القرن الخامس حتى القرن التاسع الهجري: حسن؛محمد نبيلة ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1427هـ/ 2007م.

(10) تاريخ انتشار الإسلام في إفريقية وأحوال المسلمين بها: زهرة؛ عبد الغني عبد الفتاح ، مكتبة الرشد، الرياض ط1 عام 1428هـ/ م 2007م.

(11) مملكة سنغي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير 1493. 1528م : التكيتك؛ جميلة محمد ، منشورات مركز جهاد الليبيين، طرابلس 1998م.

(12) فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور : الولاتي؛ ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991م.